تقديم الكتب

نظريـات ابن جني النحويـة

(Les théories grammaticales d'Ibn Jinni)

تأليف : عبد القادر المهيري
منشورات الجـامعة التونسية
تـونس 1973 ـ . 460 ص

تقديم : رشـاد الحمـزاوي

من النادر أن نعثر إلى يومنا هذا على دراسات تصف وتحلل وتؤرخ لمختلف العلوم التي الفت في العربية لا سيما في علوم اللغة التي كان لها حظ كبير عند العرب والمسلمين . فلقـد خصص Arnaldez دراسـة لابن حـزم لم يعالج فيها العلوم اللغوية في حد ذاتها وتناول بعضهم بالدرس كتاب سيبويه دون أن يلم بجميع عناصره ودون أن يدرسه دراسة علمية مستقيمة . وظلّ الخليل ابن أحمد مغبونا لان الدراسة التي خصصها له مهدى المخزومـي لا تفـي بالحاجـة ، ولم يحظ سيـبويه بـدراسة تناسب منزلته من الدراسات اللغوية العربية . ويمكن لنا أن نقول نفس الشيء بالنسبة إلى الكثير من كبار اللغويين القدامـى .

ولذلك يعتبر مؤلف الأستاذ عبد القادر المهيري بادرة مهمة تسد جزءا هاما من فراغ كبير وتساهم في وضع اسس ابستمولوجية علوم اللغة في العربية فضلا عن مساهمتهـا في أحيـاء تـراث كثيـرا ما يمجـد أو يحتقـر لأسبـاب ايديولوجية لا تعتمد النصوص ولا تستند إلى المصادر . ولسائل أن يسأل : لم هذه العناية بابن جنـي دون غيره ممن سبقـوه في ميدان اللغة مثل سيبويه ؟ لقد اعتنى الاستاذ المهيري بهذا المؤلف لانه يعتبر أنه لم يدرس دراسة اجمالية وقد شُرع في نشر مؤلفاته الهامـة منذ سنة 1855 وخصص لـه المستشرق H. Fleisch مقالا مفيدا يتعلق بسر صناعة الاعراب لا يمكن له ان يستوعب مساهمة ابن جنـي الكبرى في علوم اللغة .

ولقد فضل الاستاذ المهيري الاعتناء بابن جنـي لعوامل عدة منها :

1 ــ أن دراسة سيبويه قد اوكلت إلى غيره من الدارسين ولما ينته منها مع العلم ان هذا الموضوع مربوط ربطا وثيقا بالدراسات النحوية الأولى التي كانت أساسا لكتاب سيبويه والتي يعسر حاليا استجلاء أمرها باعتبار ما نفتقر إليه في شأنها من مصادر ومراجع .

2 ــ ان دراسة ابن جني تعتبر أحسن مصدر لبيان طبيعة الدراسـات اللغوية العربية واستجلاء طرقها في وضع القضايا اللغوية مع اعتبار تطور مناهجها لمعالجة تلك القضايا لان القرن الرابع يعتبر القرن الذي استكملت فيه الدراسات النحوية واللغوية عناصرها مما يفتح المجال واسعا للمقارنة بين النظريات والمناهج المختلفة ويساعد على تقييم محصول الدراسات النحوية واللغوية العربية .

3 ــ ان دراسة ابن جنـي تعتبر مثالا تطبيقيا لذلك لا سيما وأنه قد « نشأت في ذلك العهد المحاولات الأولى في سبيل وضع أصول النحو على غرار علم آخر كان مدعاة للخلافات المنهجية والنظرية ، ونعنـي به علم الفقه » (ص 14) وتبدو دراسة ابن جنـي من الأولويات نظرا إلى نزعتها إلى وضع

الأسس النظرية لعلم النحو العربي . ولقد قسم الأستاذ المهيري الموضوع إلى خمسة أبواب كبرى تحوى اثني عشر فصلا وهي تدور حول :

1 — المؤلف ومؤلفاته (ص 19—87)
2 — نظريات ابن جنـي اللغوية العامة (89—118)
3 — نظريات ابن جنـي في علم الاصوات (ص 157—235)
4 — نظرية ابن جنـي في الصرف (ص 239—315)
5 — نظرية ابن جنـي في النحو (ص 319—395)
6 — الخاتمة العامة (399—424) — والملاحظ أن الاستاذ المهيري قد سعى إلى ربط هذه العناصر بعضها ببعض مبينا أنها متكاملة تعكس تفاعل ثقافة ابن جنـي مع ا راءه ونظرياته اللغوية .

اعتنى الاستاذ المهيري في الفصل الأول بحياة المؤلف ونظر إليها نظرة شاملة استوعبت جميع عناصر بيئته الاجتماعية والعلمية والثقافية . ولقد أكد على أطوار ثقافته انطلاقا من الموصل مسقط رأسه ليتتبع تلك الأطوار ببغـداد عاصمة العلم ومجمع الثقافة في عصر ابن جني ، مبينا أثر شيوخه في تلك الثقافة وخص بالذكر منهم اثنين أولهما أبو علي الفارسي الذي أخذ عنه مناهج القياس وطرق التدريس النازعة إلى استخلاص المجمل من المفصل والمفرد والمتفرع ، وثانيهما القارىء واللغوي ابن مقسم الذي أخذ عنه الفصيح وعلم القراءات لا سيما الشاذة منها . ويرى الاستاذ المهيري أن ثقافة ابن جني قد استوعبت جميع علوم عصره اللغوية كوفية أو بصرية وما إليها من خلاف وجدل وما تتحيز إليه من سماع أو قياس من ذلك المؤلفات المفردة والجامعة في النحو والمعاجم والقراءات مما كون له زادامهما سيساعده على التعمق في آراء سابقية سواء باستجلاء غامضها أو بتجاوز ما كان معروفا منها . (ص 39) . ولم تقتصر ثقافة ابن جني على اللغة فحسب بل استوعب الفقه ومذاهبه وعلم الكلام الذي كان له مدخلا إلى علم المنطق مما سيزوده

بوسائل تسمح له باستعمال المنطق في اللغة واستخلاص مناهج نظرية في اللغة يغلب عليها منزع منطقـي مشط أحيانا .

ولقد كان لهذه الثقافة أثر على ا راءه ومؤلفاته التي سعى الاستاذ المهيري إلى حصرها في الفصل الثاني مبينا تهاون المراجع القديمة في الاعتناء بها دون أن يهمل قضية تاريخ تأليفها بغية ترتيبها ترتيبا تاريخيا يساعد على ابراز القضايا التي استأثرت بعناية ابن جني . ولقد قسم مؤلفات ابن جني إلى 13 مادة تجمع 56 مؤلفا ووصفها محللا أهم مميزاتها ومؤكدا عليها فيقول في الخصائص «كتاب الخصائص صورة صادقة عن شخصية ابن جني . انه يعبر بصفة خاصة عن سعة ثقافته اللغوية ، ويشهد بأن ذلك العالم كثيرا ما يفلح في السيطرة على علمـه الواسـع ليـدرك مستـوى من الـرأي المجمـل الـذي لا يخلـو من متانـة» (ص 69) . ومهما كانت غزارة علم صاحبنا وتنوع مؤلّفاته التي لا تختلف نوعا ومحتوى عن مؤلفات سابقيه، فان الاستاذ المهيري يرى أن أغلبها مركز على اللغة دون غيرها . الا أن ثلاثة منها تمتاز عن غيرها وهي الخصائص ، وسر صناعة الاعراب والمحاسن في العربية التي ستعكس نظرياته اللغوية العامة أو المختصة دون أن تستأثر بها .

في الفصل الثالث من الباب الثاني يدرس المؤلف موقف ابن جني من مسألة نشأة اللغة أو أصلها الاول : هل هي توقيف أم اصطلاح ؟ فيشير إلى ما كانت عليه القضية قبل ابن جني لا سيما عند اليونان مبينا استئثار المعتزلة بها وأثر آرائهم في نظريات ابن جني الذي يقف من النظريات المتنازعة موقف الواصف الموضوعي وان كانت المعتزلة التي ينتمـي إليها تقـول بالاصطلاح .

الا أن ابن جني لا يظل حِـيَـادِيًـا أمام النظرية الأخرى التي تربط أصل اللغة بالحكاية ومفادها أن اللغة ناشئة من حكاية الأصوات الطبيعية . فهو يرى أن صلة الأصوات بالمعاني وثيقة يسعى إلى تبيين وجوهها معتمدا أمثلة لغوية

متعددة تقوده إلى وضع مسألة الاشتقاق الاكبر وهي نظرية مفادها أن كل مجموعة من الأصوات الساكنة تعبر – اذا طبق عليها مبدأ التقليب – عن معنى عام أساسي واحد مثلما دل على ذلك الخليل « في كتاب العين » وابن فارس في المقاييس والمجمل .

ونستخلص من هذا الموقف الاخر ميله إلى النظرية الطبيعية دون أن يتهاون بنظريتي الاصطلاح والتوفيق . فهو يدعو إلى موقف توفيقي « نشعر من خلال النظريات الثلاث التي يقدمها لنا أنه يرى وجوب الاحتفاظ بشيء من كل واحدة منها » (ص 103) فالتوقيف يشهد بكمال اللغة العربية باعتبار كمال خالقها والاصطلاح الانساني يسمح بتنمية الغة ، والحكاية تبرر الاصطلاح اعتماد على قواعد تجنبنا الاعتباط .

ان نشأة اللغة بصفة عامة تثير قضية نشأة العربية أو أصلها الأول فيطبق عليها ما طبق على اللغة عامة باعتبار أن اللغة العربية نظام قد وقفت خصائصه منذ البداية ولم تتطور بالاصطلاح . فما خرج عن ذلك يخضع لمبدا الاهمال أو ما يعبر عنه بالموجود بالقوة الذي لا ينفي النمو اللغوي مع احترام المبادىء الأساسية الأولى الموقفة . ولذلك يرى المؤلف أن نظرية ابن جني في هذا الميدان تمتاز بالمرونة لأنها تقول بالنمو باعتبار تعدد الحاجات والضرورات وتنظر إلى اللغة كمؤسسة انسانية .

ان هذا النمو يخضع في الميدان التطبيقي إلى وسائل فنية تنحصر في الاشتقاق والقياس الخاطىء وتعدد الصيغ الناتجة أحيانا عن تراكب اللغات كذلك في المعرب والتغيير الذي يلحقها . ان هذه التقنيات تشهد على نمو العربية شرط أن تتجنّب كل ارتجال مجحف .

ويرى الأستاذ المهيري ان اقرار مبدإ النمو اللغوي لا يؤول بابن جني إلى تصور معنى التطور اللغوي لأن ذلك التطور ينفي حتما اعجاز لغة القرآن التي تعتبر عنده المثل الأعلى في اللغة .

في الفصل الرابع من الباب الثاني يبحث السيد المهيري عن المناهج الفنية التي استعملها ابن جني لاستقراء مادة الفصيح من اللغة الذي لا ينحصر عنده في المدن بل في القبائل مع اعتبار أن جميع لهجاتها حجة وأنها فروع من أصل واحد يجب التوفيق بينها . الا أن هذه النزعة الادماجية لا تمنعه من اعتبار لهجة قريش معيار الفصاحة . ان استقراء مادة هذا الفصيح يستوجب من اللغوى ان يتخير رواته لرواية الشعر القديم دون ترك شعر المحدثين والحديث لجمع المادة اللغوية التي يدرسها اللغوي من الناحية الصوتية والصرفية والنحوية . وتكون الغاية منها البحث عن مطابقة المعطيات اللغوية لنظام منسّق وبعبارة أخرى البحث عن دمج كل المعطيات في نظام متماسك العناصر يدل على كمال العربية

يركز ابن جني ذلك النظام على مبدأى القياس والسماع . فهو يعتبر السماع الفصيح أساس اللغة . فهو يمنع القياس الذي يستعمل لغاية تعليمية ويهدف إلى وجود أسس عقلية للغة لتبرر طبيعتها وهيكلها . ولذلك كان هدف القياس البحث عن العلل وتمكين النحويين البارعين من الاجتهاد لمخالفة الاولين واعتماد الاستحسان لاختيار ما يرونه صالحا من الاراء المتقابلة شريطة ان يستندوا إلى النصوص .

ان هذه المجموعة من المناهج « مبادىء تبين كيف تجمع المادة اللغوية ، وكيف يكون منها مجموع منطقي باعتبار أن عناصرها تطابق عبقرية العربية أو تطابق استعمالات تشهد بها آثار من يعتد بهم في اللغة » (154) .

في الأصوات التي يخصص لها الفصل الخامس يبين السيد المهيري ما كانت عليه حالة الدراسات الصوتية قبل ابن جني الذي خصص قسطا كبيرا من كتاب سر صناعة الاعراب لعلم الأصوات مما يدل « على أنه يعتبر ان هذه العلم يستحق أكثر من الملحوظات المنتثرة » (ص 160) — فيعرض الاستاذ المهيري ما لابن جني من آراء في وصف الجهاز الصوتي والتمييز بين الحروف والصوت ومخارج الأصوات وصفاتها وان كانت هذه الاراء لا تختلف

عن آراء سيبويه في الموضوع مع مخالفته في بعض الأحيان سواء بذكر المهموسات وترك المهجورات والتأكيد على وصف الحروف المشربة واضافة حروف البدل وحروف الزيادة التي تتصل بالصرف أكثر ما تتصل بعلم الأصوات . ولقد بين الأستاذ المهيري في تحليله لهذا الموضوع ان ابن جني كان يسعى إلى وضع أسس علم الأصوات العام في العربية فيقول « ان المادة التي نجدها منتشرة في كتب النحو تقدم هنا حسب مخطط منطقي تؤيدها فضلا عن ذلك تفسيرات المؤلف التي كثيرا ما تعتمد ملاحظات شخصية . وهي في النهاية معروضة بوضوح وبلغة بسيطة تدل على تضلع مؤلف الخصائص في هذه المادة » (ص 180) .

ولقد تفرع هذه الموضوع في عمل المؤلف إلى عنصرين هامين : الأصوات الساكنة والأصوات اللينة . ولقد اعتنى بالاول في الفصل السادس من بحثه مستمدا عناصره من كتاب سر صناعة الاعراب والمصنف والتصريف الملوكي والخصائص : فلقد اهتم ابن جني بظاهرة التغير في الاصوات الساكنة التي لا يفرق بينها وبين الأصوات اللينة . فاهتم بالابدال والقلب والادغام ووصف الأصوات الساكنة يحسب مخارجها وأوصافها وتغيراتها . فلم يزد شيئا على ما ذكره سيبويه اذ يقول الاستاذ المهيري في ذلك « ان طرافة ابن جني لا تظهر في الحقيقة بصفة جلية . ويمكن أن نقول ان كل ما قاله في هذا الفصل موجود على الاقل بالقوة في كتاب سيبويه » (ص 187) وان كان يتميز عن سيبويه بعرضه الواضح للأصوات الساكنة وخصائصها واستجلاء مخارج بعض الأصوات واستخلاص المبادىء التي يخضع لها تا لف الحروف وتنافرها لتكوين الألفاظ والكلمات مثل مبدأ مضارعة الحروف الذي يحسن تجنبه .

أما فيما يتعلق بالأصوات اللينة الوارد ذكرها في الفصل السابع فان الأستاذ المهيري يبين ان ابن جني قد اعتمد الطريقة التقليدية وذلك بتمييز الحروف الصحيحة من الحروف المعتلة دون أن تغيب عنه أهمية الأصوات

اللينة وانعدام كل حاجز عند النطق بها . لكنه لا يفصلها فصلا واضحا عن الأصوات الساكنة – فيظل معنى الحرف طاغيا على نظرته . وهو يجهـل مصطلح الكمية الصوتية لكنه يدركها عندما يقارن الأصوات اللينة القصيرة بالأصوات اللينة الطويلة لا سيما عندما يتحدث عن مطل الحروف أو اطالتها وهو يدرك أيضا معنى « الفونيم » عندما يتحدث عن مضارعة « الحرف » والحركة » « إن ابن جني يصف هذه الأخيرة بوصف « الفونيم » أي بكونها صوتا يندمج على غرار الحرف في صلب الكلمة » (ص 218) .

ولقد اعتنى ابن جني بأصوات اللين القصيرة وما تؤول إليه من اشمام وروم واخفاء كما اعتنى بالجرس الظاهر في الامالة إلى غير ذلك من المظاهر الصوتية الأخرى لا سيما السكون الذي يعتبر عنده في نفس مرتبه الصوت اللين لأنه يقيم ميزان اللفظ أو الكلمة . ولاشك أنه شعر بأهمية الأصوات اللينة وما لها من دور وان كان لم يستجل ذلك استجلاء واضحا .

اما نظريات ابن جني في الصرف فهي تبحث حسب المؤلف في ثلاثة مظاهر : الأول يتعلق بالمبادىء العامة والثاني يهم الأثل وتنميته اللغوية والثالث يخص العلاقة القائمة بين اللفظ ومعناه . ولقد عالج المؤلف الموضوع الأول في الفصل الثامن من كتابه فيشير إلى أن ابن جني يميز بين النحو والتصريف والاشتقاق معتبرا ان التصريف يشمل النحو وأنه مادة صعبة المراس بالنسبة للمبتدئين . واعتمادا على التصريف يسعى ابن جني إلى وضع « ما يمكن ان نسميه نظرية الكلمة . فسيسعى إلى ان يضبط خصائص هيكل الأثل لاسيما عدد الأصوات الساكنة المكونة له ، والصيغ التي يمكن اشتقاقها منه والتغيرات الطارئة عليه اثر عوامل داخلية والتي توفر امكانية تفسير مظهر الكلمة النهائي » (ص 242) . والملاحظ أنه لم يأت بالجديد الا أنه سعى إلى ان يبني نظامـا انطلاقا من نظرية الخليل وسيبويه والمازني وأبي علي الفارسي . وهي تحوم حول ثنائية الأصول وثلاثيتها أو رباعيتها . فهو يؤيد النظرة القائلة بأن ثلاثية

الأصول تمثل الأثل المثالي باعتبار تناسق عناصره الثلاثة وسهولة النطق به . أنّ هذا المظهر مهم خاصة اذا اعتبرنا تناسق مختلف الأصوات الثلاثة للتعبير عن معنى معيّن . وذلك ما سيدعو ابن جني إلى النظر في قضية الاشتقـاق الذي يقسمه إلى قسمين الاشتقاق الصغير وهو المتعارف المطبق عاديا في اللغة والاشتقاق الأكبر الذي سيحظى بعنايتـه لانـه يريد أن يستـدل به على نظريـة مفادها أن الأصوات تعبر عن المعاني وبعبارة أخرى التعبير عن تصاقب الأصوات والمعاني الذي سبق له أن وضحه في الحديث عن العلاقة الوثيقة القائمة بيـن الصوت والمعنى . ان البحث في هذا النوع من الاشتقاق يهدف إلى اعتبار الأثل ومركباته الصوتية أساس كلّ تفسير . فاطراد الصيغ مربوط بتكوينها الصوتي من ذلك أن قلة أصوات اللين وكثرة الأصوات الساكنة تفسر مثلا اطراد صيغة فَعْلٌ .

ان الهدف الأساسي من البحث في طبيعة الأثل والكلمة يرمـي إلـى اكتشاف أسرار اللغة وإلى لاستجلاء ما لها من نظام منطقي منسق وذلك بتجاوز التفاصيل والجزئيات لاستخلاص المبادىء العامة .

في الفصل التاسع يدرس الاستاذ المهيري نظرية ابن جني في شأن تنمية الأثل باعتبار ما يلحق الثلاثي من الزوائد التي لم يأت ابن جني فيها بالجديد . فلقد أعاد رأى سيبويه فيها معتبرا الأصوات اللينة الطويلة زوائد لأنه كان يجهل مفهوم المقطع ولأنه كان يرى أن كل ما يكتب يمثل صوتا . وقد قسم الزوائد حسب تقسيم الخليـل : الابتداء والحشو والوقف وعرض لأهـم الأصوات الساكنة المزيدة مبينا متى تستعمل ابتداء أو حشوا أو وقفا . فالنون مثلا تستعمل في الحالات الثلاث . وتأتي الزوائد للالحاق والمد والمعنى ويعتبر المعنى من أهم المظاهر عنده . وهو يرى أن صيغة الثلاثي هي أحسن صيغة تستوجب الزيادة التي يعتبرها تهوينا ولذلك فهو يدرس مبدأ العوض لأنه زيادة تمكن الكلمة من استرجاع وزنها عندما تفقد صوتا من أصواتها الأصلية . ويرى الاستاذ المهيري أن المراد من هذا البحث هو تفسير القلب الذي يلحق

مثلا اسم المفعول المشتق من الفعل الأجوف كما أنه سعي إلى تقييم امكانيات تنمية المادة اللغوية باعتبار أثلها وما يطرأ عليه من زوائد .

في الفصل العاشر يهتم المؤلف بما يسميه العبارة والمحتوى ويعني بها العلاقة القائمة بين اللفظ ومعناه . ولقد سبق لابن جني أن عالج هذا الموضوع في الأبواب السابقة عندما تحدث عن الحكاية اللغوية . ومفاد هذا الباب هو التعمق في دراسة الصلة المتينة القائمة بين المعنى وشكل اللفظ الذي يتميز بثلاث دلالات دلالة الأثل ، ودلالة الصيغة والدلالة النحوية وبعبارة أخرى فـو يرى أن الدال يعبر عن المدلول خلافا لما هو متداول اليوم في النظريات اللغوية الحديثة وان كان قد عالج قضية مهمة عندما درس العلامة وما يميزها عن علامة أخرى وعندما حلل « العلامة اللغوية باعتبار ما يمكن ان نسميه عناصرها السيمية وما يناسبها في مستوى اللفظ » (ص 315) .

يخصص الاستاذ المهيري بابين لهذا الموضوع ففي الفصل الحادي عشر يعالج نظرية ابن جني في الكلام والمقولات النحوية .

يقسم ابن جني مثل غيره من النحاة الكلام إلى اسم وفعل وحرف ويعرف بأسس هذه الأقسام موضحا ما لها من خصائص مشتركة أو مختلفة . فيبين لنا الصلة القائمة بين المصدر والفعل ، والصفة والفعل والاسم والحرف كما يثير قضية اسماء الفعل ساعيا إلى أن يجمع في باب واحد ما يراه ذا صلة بغيره . ولقد تسبب له سعيه إلى استخراج وحدة منطقية بين أقسام الكلام في تصور تصنيف لا يخلو من الهنات ذلك أنه « رغب في جمع كلمات غير متشابهة في جميع الميادين أو في جمع كلمات لا تخلو من خصائص تشترك فيها مع كلمات أخرى قد صنفت في باب آخر » (ص 334) .

ولقد اعتنى ابن جني أيضا بوضع نظرية خاصة باسم العلم وذلك في دراسته لأسماء الشعراء الواردة في حماسة أبـي تمام . وهو يرى أن الأسمـاء

والألقاب تكون اما منقولة قد فقدت معناها الأصلي وإما مرتجلة تخضع أحيانا لقواعد الاشتقاق وتخرج عنها في ميادين أخرى . وقد ألحق المؤلف بهذا القسم مسألة علاقة الاسم بالمسمى التي تأثر فيها ابن جني بنظرة سيبويه الذي ينفي تلك العلاقة . لم يأت ابن جني بالجديد في مسألة أقسام الكلام باستثناء بعض الملاحظات والتحليلات الخاصة . أما دراسة المقولات النحوية فلقد أتت منظمة في مؤلف الاستاذ المهيري الاّ أنّ ابن جني لم يدركها ادراكا اجماليا اذ أن « صاحبنا لم يعالج المواضيع التي درسناها ، في باب واحد أو في أبواب متتابعة . فلقد عالجها عرضا وفي مواضع مختلفة » (ص 338) .

ولقد أتى فيها بـآراء طريفة حسب الاستاذ المهيري فعالج منها الجنس والعدد والمعرفة والنكرة ، ولام التعريف وأنواع التعريف من ذلك تعريف العهد ، وتعريف الجنس كما تناول الفعل وزمانه ماضيا وحاضرا ومستقبلا ساعيا إلى ضبط منزلة كل زمان بالنسبة إلى الاخر دون أن يقدم في النهاية أحدها على الاخر . وتظهر طرافة ابن جني في هذا الميدان « في محاولته لابراز الخصائص التي يشترك فيه قسم من أقسام الكلام مع قسم آخر ، وهي محاولة يبدو أنها تدل على أنه يعتبر أن الفواصل التقليدية ليست على حالة من التحجر الذي نتصوره » (ص 347) .

في الفصل الثاني عشر والاخير يعالج الاستاذ المهيري مسألة الجملة عند ابن جنيّ . وهي قضية مهمة قل أن تنبه إليها النحاة قبل صاحب الخصائص الذي يعالجها بطريقة واضحة ومنظمة باقامة الفرق بين الكلام والقول والجملة . فالكلام عنده هو الجملة أو الجمل كما هو الشأن عند بعض اللغويين المعاصرين الا أنه لا يبين الفرق بين الجملة الجامعة La Phrase والجملة الفرعية Proposition

وهو يستعمل الجملة الجامعة في معنى الجملة الفرعية في بعض النصوص وان كان لم يصل إلى ذلك المفهوم واللفظ المعبر عنه . لكن كان له شعور حاد بوظيفة الجملة وأهميتها في الكلام لان افادة الكلام لا تحصل بكلمة واحدة

بل من خلال الجمل . فهي وحدة الكلام الاساسية ولا يمكن آن يكون لها شأن الا اذا وجد متكلم ومخاطب . ويمكن أن يكون للجملة محتوى أقصى ومحتوى أدنى قد يعبر عنه بالحذف أو التنغيم . فالمهم عند ابن جني هو أن الجملة الصحيحة « هي كل كلام يؤدي معنى كاملا سواء احتوى على جميع عناصر الجملة الضرورية لذلك الغرض أو ان يكون جزءا من سياق سيمي أو محسوس يعوض عناصرها المفقودة » (ص 360) .

وهو في دراسته الجملة يسعى إلى ان ينظر إليها نظرة اجمالية بقطع النظر عن كونها جملة اسمية أو فعلية بل يهمه منها ما تحقق فيها من اسناد بعنصريه : المسند والمسند إليه . فالجملة تكون مكتملة كلما تحقق اسنادها . وللجملة عناصر أخرى تنحصر عنده في الفضلة . ويؤكد على وظيفة كل عنصر من عناصرها الأساسية كذلك الثانوية لما لها من أثر في هيكل الجملة — فهو لا ينسى دور حروف المعاني في الجملة وهي تؤدي عنده وظائف عدة منها الايجاز وتعويض بعض الأفعال وتضمن وحدة الجملة الا" انه ليس لها محتوى أساسيٌّ في الجملة وكثيرا ما تدمج في عنصر من عناصرها . المهم عند ابن جني هو أن الجملة وحدة مرتبة العناصر وهي عناصر ليس لها نفس الأهمية . فمنها ما هو أساسي وما هو ثانوي .

ان هذا الترتيب وهذه الصلات تبرز واضحة عندما تطبق عليها قواعد الاعراب الذي لا ينحصر في الحركات التي لا تعتبر من مقومات الجملة الصحيحة اذ أن اتقان الكلام لا يكون باتقان الاعراب بل بالالمام بجميع المظاهر اللغوية الأخرى المكونة للجملة . والاعراب لا يكفي ليكون دليلا على الوظيفة في الجملة . وهو لا يلحق جميع كلمات اللغة العربية إذ منها ما تخضع للبناء . ولقد اعتمد البناء حسب ابن جني للتخلص من مضنيات الاعراب ولذلك فالكلام ينقسم عنده إلى معرب وهو في الاسماء والمضارع وإلى مبني وهو ما تبقى . وليس الاعراب قاعدة آلية يخضع إليها الكلام بل هو من تصرف

المتكلم . ويلاحظ المؤلف في هذا الصدد « يبدو أن هذا الرأي يمثل رد فعل ضد نوع من الالية التي تجعل بعض النحويين يعتبرون أن للعوامل أثرا حقيقيا يسمح لها بفرض علامات الاعراب » (ص 379) الا ان صاحب الخصائص لا يخرج عن التقاليد عندما يعتبر ان العامل طريقة مفيدة تضبط معالم الجملة وهو ينقسم مثلما أشار إلى ذلك سيبويه إلى عامل أقوى وعامل أقل قوة وهو عامل الجـر .

ولقد عالج ابن جني مواضيع أخرى لها صلة بالجملة والاعراب من ذلك التقديم والتأخير والحذف الذي يعبر عن نزعة المتكلم إلى السهـولة وإلى الاقتصاد في الجهـد .

وفي النهاية يرى الأستاذ المهيري أن كل ما قاله ابن جني في شأن الجملة والاعراب موجود عند سابقيه من النحويين الاّ أن طرافته تكمن في « ملاحظاته العديدة المتعلقة بمواضيع يتهاون بها النحاة عادة . ان هؤلاء النحاة لم يعودونا على استخلاص أهمية الجملة كوحدة من الكلام ، ولم يبينوا أن مفهوم الجملة مربوط بتمام المعنى الذي تعبر عنه لا بعدد العناصر التي تتكون منها . انهم لم يعودونا على اعتبار السياق المحسوس للكلمة الذي لا يمكن أن نهمله ان اردنا أن ندرك ادراكا مفيدا هيكل الجملة » (ص 395) .

هذه هي أهم الآراء التي جاءت في مؤلف الاستاذ المهيري وان كان يصعب أن نلم بها الماما مرضيا باعتبار ما تتميز به آراء ابن جني من تفاصيل وملاحظات وتقصيات وباعتبار ما بذله السيد المهيري من جهد للالمام بتلك الاراء التي تعمق في وصفها وتحليلها واستخلاص ما هو متعارف وما هو طريف . ولقد لخص جميع آرائه في نظريات ابن جني في خاتمة عامة تعتبر في حد ذاتها دراسة مجملة لنظريات صاحب الخصائص .

انّ الدراسة التي قدمها لنا الأستاذ المهيري تعتبر نموذجية في منهجها الذي ربط آراء ابن جني بثقافته وببيئته وفي حسن اختيارها هذا الموضوع

بالذات اذ أنها ركزت على نحوي تجمعت في تأليفه أصول المعرفة اللغوية العربية وما وصلت إليه من نظريات وآراء لم يأت بعدها جديد مجدد . ولقد امتاز عمل المؤلف بالشمولية وبالوضوح اذ أنه استطاع أن يجمع آراء ابن جني حتى المتشتتة منها .

وقدم لنا بعد التحليل والوصف ، فكرة مجملة قل أن تحققت إلى يومنا هذا في الدراسات اللغوية العربية . فلقد ربط آراء ابن جني بكل من سبقوه وأحيانا بمن لحقوه من المتأخرين والمحدثين العرب والأجانب مبرزا طرافة ابن جني لا في ميدان العربية فحسب بل بالنسبة لعلم اللغة عامة . ومما يجدر ملاحظته أننا نستطيع لأول مرة ان نستسقي من هذه الدراسة أهم القضايا اللغوية التي شغلت بال اللغويين العرب والمسلمين وكونت نظرياتهم اللغوية . ولاشك أن الدارس المختص سيجد في هذه الدراسة مرجعا يوضح معالم القضايا اللغوية ليدرك ادراكا علميا صحيحا منزلتها من النظريات اللغوية في القديم والحديث .

ان هذه الدراسة تعتبر حدثا هاما في تاريخ الدراسات اللغوية العلمية في العربية ونحن نرجو أن تعقبها دراسات مماثلة حتى يمكن لنا أن نضع تاريخ الدراسات اللغوية العربية .

رشاد الحمزاوي